العقيدة الإسلامية من خلال كتب الشيخ محمد الغزالي

حجيبة شيدخ *

من أهم مجالات الفكر الإسلامي التي أثارت انتباه علماء المسلمين في العصر الحديث في جهودهم المتواصلة من أجل إحياء حركية وتفاعل الإنسان المسلم: « **الفكر العقدي**".

والشيخ الغزالي بعلمه وثقافته الموسوعية بحث وعمل جاهدا من أجل إرجاع العقيدة الإسلامية إلى صفائها الذي أحيا أمة كانت تعيش جاهلية واسعة.

وبعدة قوية، دعا الشيخ إلى ضرورة التجديد في منهج عرض العقيدة، كما أنه اهتم بعلاج كل الانحرافات التي صبغ بها العصر الذي نعيشه (القديمة منها والحديثة) كاليهودية والنصرانية والأيديولوجيات المختلفة. وكل ذلك إيمانا منه بأن هذه الأمة لن تصلح إلا بالتمسك بعقائدها، ولن ترقى إلا بهيمنتها على المخالفين لها. يقول: « هذه العقائد هي التي تصنع الأخلاق المتينة وتبني الرجولات المحكمة، ونقهر الأزمات العاتية، وتجوز العقبات الشداد، وإذا أفلح الغزو الثقافي في زحزحة المسلمين عن عقائدهم فقد أصاب دينهم في صميمه وماذا يبقى لجسم فقد قلبه ودماغه، إننا بتصحيح العقيدة والثبات عليها، نصل حبلنا بالله، ونستوثق من رضاه، ونعمل وفي أفئدتنا برد اليقين أن العناية العليا ترعانا.»[1]

إننا لن نستطيع الرجوع إلى حلبة المنافسة وإثبات وجودنا الحضاري إلا بالرجوع إلى منهج القرآن الكريم، والاقتناع بأنه المصدر الأول والأخير الذي يجب علينا أن نأخذ منه أفهام عقيدتنا.

وفي بحث الغزالي عن علل تأخر

---

* أستاذة مساعدة بكلية أصول الدين والشريعة والحضارة لإسلامية. جامعة الأمير عبد القادر.

[1] محمد الغزالي: كيف نفهم الإسلام، ص.158

المسلمين وتراجعهم الحضاري، يرى أن في مقدمتها: أخطاء علم الكلام، والفلسفة والتصوف. فحين احتلت هذه العلوم مكان المنهج القرآني في صياغة العقيدة الإسلامية، فقدت العقيدة إشعاعها. فما هو موقفه من هذه العلوم؟.

- أولا / موقفه من علم الكلام والفلسفة:

يتفق الشيخ الغزالي مع غالبية علماء العصر في النظر إلى التراث العقدي، ويعتبره من الأسباب التي كان لها دور في تراجع الحضارة الإسلامية.

لقد انقضى العصر الأول وجمهور المسلمين تشغلهم خدمة الإسلام عن الخوض في الجدل حول مسائل العقدية إلا أنه وبخاصة بعد ترجمة الفلسفة اليونانية أصبح أسلوب تدريس العقيدة غريبا عن المنهج الذي رسمه القرآن فصيغت الناحية الإلهية منها في قوالب من منطق أرسطو، وانكمشت الناحية الإضافية فذبلت ثم اختفت، « كل هذا جعل موضوع العقيدة أقرب إلى العنوان الذي اصطلح الأقدمون على تسمية علمها به أي الكلام!! وكأن الأقدار أجرت هذا الاصطلاح على ألسنة القوم ليكون رمزا سافرا على ما آل إليه تدريس العقائد وإرساء دعائمها في القلوب!! لقد صار الأمر كله كلاما في كلام أو أحلاما يتنقل في أوديتها النيام.»[1]

ويتميز منهج المتكلمين كما يصفه الشيخ بطغيان الجدل والتعصب للرأي، كان للسياسة دور كبير في تغذيته، ويرى أن كتب الكلام قد فشلت في إيصال العقيدة وأداء رسالتها شكلا وموضوعا. يقول: « فمن ناحية الشكل لا معنى البتة لعرض علم ما في توزيع مضطرب بين متن، وشرح، وحاشية، وتقرير. وفي لغة

[1] الغزالي: كيف نفهم الإسلام، ص.147

ركيكة اللفظ سقيمة الأداء لغة تصور سقوط البلاغة العربية ... على أننا إذا تغاضينا عن الشكل وتعرضنا للجوهر بالنقد والتمحيص لا نلبث أن ندرك أن هذا الجانب الإلهي من الثقافة الإسلامية طغت عليه الفلسفات الغربية (التي نقلها السريان عن اليونان وغيرهم)".[1]

ولعل من إيجابيات هذه الثقافة في رأي الشيخ دلالتها على مدى الحرية التي أتاحها الإسلام لأتباعه، وأن الدائرة التي يعمل فيها العقل الإسلامي تسع العالم أجمع وليست مغلقة على عصبية جنسية أو فكرة محلية.[2]

وحين نتتبع كتابات الشيخ لاحظ أن حدة موقفه من علم الكلام ترجع كذلك إلى النقاشات الجدلية التي أصبحت تثار بين العامة في مسائل لا نجني من وراء الخوض فيها بمنهج المتكلمين إلا التفرق: مثل الخوض في: حقيقة الاستواء، والكلام. وبتحسر ينقل بعض هذه المواقف قائلا: «**وقد خامرني الأسى – من بضع سنين – وأنا المح بين العوام بقايا الانحرافات الذهنية في تصور العقائد، وتلقي معارفها. فقد اشتبك بعض البوابين والبقالين في أحد مجالس العلم حول تفسير استواء الرحمن على عرشه! وبذلت جهدي في إطفاء هذا الحوار السخيف وطالبت الحاضرين ألا يقفوا عند هذه الآيات وأشباهها وقفة استقصاء وعمق فذاك ما لا طائل تحته**".[3]

ويرى الشيخ أن آراء المتكلمين ترتب عنها سلبيات كثيرة كانت من عوامل تقهقرنا، فإذا نوقشت مسألة: ارتباط الإيمان بالعمل استفاد المجتمع من هذا

[1] الغزالي: عقيدة المسلم، ص.10

[2] الغزالي: المرجع نفسه، ص.10

[3] الغزالي: كيف نفهم الإسلام، ص.148

الخلاف ترك العمل وتبرير ذلك بأدلة القدماء فسيطر الفكر الإرجائي على واقعنا، وإذا نوقشت مسألة الفعل الإنساني، ترجح لدى العامة أن الإنسان مجبور لا حول له ولا قوة، فتسقط الهمة وتخور العزائم، – وإذا تجادل العلماء: هل للمسلم حق الالتجاء دون وساطة الصالحين من الأحياء والمقبورين ترجع لدى المسلم عدم الاستغناء عنهم – وبذلك خلق علم الكلام مشاكل عاشها القدماء ولا تزال تنخر في أمتنا إلى يومنا هذا.

لقد اختصر الوحي أمام العقل البشري جهودا كبيرة وأعطاه حلولا فيما يتعلق بما وراء المادة، أثبت التاريخ فشل العقل في الوصول إلى جزء منها يستحق الاطمئنان. والدليل على ذلك الجهود الضنية التي بذلها الفلاسفة وما أوصلتهم إلى نتائج مستقرة.

يقول الشيخ: « إن الفلسفة جهد عقلي مضن، بيد أن حصاد هذا الجهد لا يغرس الطمأنينة وما يخلص الدين إلا إذا ابتعد عنها.»[1]

ولكل ذلك وجب على المسلمين الرجوع إلى منهج القرآن في أخذ العقيدة وجني ثمارها.

- ثانيا / موقفه من التصوف:

لقد بنى الإسلام الحياة الروحية للإنسان على أساس الصلة القوية بالله – ﷻ –التي تنعكس على الحياة فتجعل الإنسان رهينة الله – تبارك وتعالى – حركاته وسكناته.

ويذهب الشيخ إلى أن التصوف كان له دور في التربية والترقية الروحية، عجز عن أدائه الفقه وعلم العقيدة يقول: « وناحية الوجدان في العبادة ظفرت، من المتصوفة القدامى بعناية رائعة فقد لونوا

[1] الغزالي: كيف نفهم الإسلام، ص.131

الأفـــئدة بعواطف حارة في علاقتها بالله، وأمدوها بفيض من الأشواق النبيلة جعل أداء الطاعات المفروضة كسماع الموسيقى المشتهاة"[1].

ويطرح مجموعة من الأسئلة من شأن الإجابـــة عنها أن تحقق للإنسان الارتقاء الـــروحي، ويرى أنه ما أجاب عليها غير المتصوفة، ومنها:

- كيف نربي في القلوب الإحساس بجلال الله والخشوع لعظمته؟
- كـــيف نجعـــل اليقين ينزل من السطح ليشتبك بالأعماق؟
- كيف نحول المعرفة بالله إلى مذاق حلـــو يطـــبع النفوس على الرقة ويصفي السرائر من كدرها؟
- كيف نجعل المرء مشتاقا إلى ربه، فهـــو ببواعث من أشواقه يطيعه ويسارع إلى مرضـــاته.. وكيف نجعله هيابا لذاته، فهو بدوافع القلق ينفر من معصيته ويفزع من مساخطه..
- كـــيف يشهد المرء ربه في مجال السموات والأرض، ويشهد أسماءه الحسنى فيما يقع من حركة وسكون على امتداد الزمان والمكان؟

ويـــرى أنه لا يتم إيماننا ولا يثمر ديننا إلا إذا أحسنا الإجابة على هذه الأسئلة.

يقـــول: « إنـــني لست متصوفا، وما أحـــب أن أنتســـب إلى فـــرقة من فرق المسلمين ...

بيد أن الإنصاف يدفعني إلى القول بأن هـــذا الجانب المهم من الثقافة الإسلامية اللازمـــة لم يلـــق العناية المستحقة لدى جمهرة الفقهاء والمتكلمين، وأن المتصوفة بـــرغم شـــطحاتهم، وغلطاتهم هم الذين أفاضوا في هذا الحديث، إن فقهاءنا كتبوا المجلـــدات في غســـل الأطراف، ما كان يعيـــبهم أن يتـــناولوا هـــذا الجانب وأن يضبطوه بأدلتهم الفقهية.

---

[1] الغزالي: ليس من الإسلام، ص.215

وإن المتكلمين الذين عقدوا الفصول الخطيرة في الشؤون الإلهية المعنية ما كان يعيبهم أن يجيبوا الناس في الله ويرفعوهم إلى حضرته بأسلوب علمي محكم.

لقد كان ذلك – والله – أجدى على الإسلام وأهله، من بحوثهم العميقة في الذات والصفات.."[1]

ثم يذكر الشيخ أنه أحسن صلته بالله كثيرا على اثر كلمات قرأها لبعض العلماء المنتسبين لهذا العلم كالغزالي وابن عطاء الله السكندري، وهو يرى وجوب وجود علم يقوم على رفع الإنسان إلى مقام الإحسان، علم يعالج العلل العقلية والنفسية التي تحجب المرء عن ربه، وتلصقه بالتراب، أو التي تهتم بأشكال العبادات ولا ترتبط بمعناها وحكمتها ... ولا تهم التسمية التي يسمى بها هذا العلم.

يقول: " ولرجال التصوف باع طويل في هذا المضمار، وعندما نضع جانبا الخرافات التي روجوها، نجدهم أفلحوا في تكوين أجيال على قدر ملحوظ من دماثة الخلق، وحسن السيرة، وتقوى الله وعلى قدر ملحوظ من إعزاز الإسلام، والدفاع عنه، والاستشهاد في سبيله وإن كانت عواطفهم تلك لم يصحبها بصر نافذ إلى الوسائل الصحيحة والخطوات الراشدة"[2].

✔ حدوث الانحراف ونقد التصوف:

– لقد كان للتصوف أهداف نبيلة لكنها اختفت واختلطت بالأوحال بسبب ما أصاب هذه الثقافة من انحراف دخيل (للفكر الأجنبي: الأفلوطيني، والبرهمي الهندي، والمسيحي).

فصبغ التصوف الإسلامي برسوم من

---

[1] محمد الغزالي: ركائز الإيمان، ص.103

[2] محمد الغزالي: كيف نفهم الإسلام، ص. 161،160

العبادات ليست من الإسلام، كما استحدث الصوفية الاعتقاد بالأولياء، فرجموا بذلك هذه الأمة ودينها.

- وحين حديثه عن طريق الصوفية يقول ابن خلدون: « أصلها العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله - ﷻ - والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ...

وكان ذلك عاما في الصحابة.

ولما نشأ الإقبال على الدنيا في القرن الثاني، وما بعده وجنح الناس إلى مخالطتها، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية.[1]

ينقد الشيخ الغزالي هذا الكلام، ويرى أنه كلام مشوش، مضطرب، وذلك ينقل مفهوما سلبيا عن حقيقة الزهد عند المصلحين الأوائل يقول: « يجب أن يعلم المسلمون أن حاجة الدين للدنيا كحاجة الروح للبدن. وأن أي تعليم يخل بقوى الأمة المادية ويمكن غيرها من التفوق عليها، فهو خيانة الله ورسوله، وإذا لم يكن خيانة قلبية، فهو خيانة فكرية، إن القرآن الكريم سوى بين الجهاد الاقتصادي والجهاد العسكري، ورخص للمجاهدين في الميدانين معا أن يقرأوا من آياته ما تيسر لهم.»[2]

✔ نقد الشيخ لبعض آراء الصوفية:

- ومن أراء الصوفية الخطيرة التي نقدها الشيخ، ويرى أنها أبعدت المسلمين عن ميدان الحياة، القول بوحدة الوجود. والفناء والقول بوحدة الوجود، تفكير هندي قديم، هؤلاء يتصورون أن هذا العالم أزلي أبدي، وأن الأرواح تخرج من

[1] ابن خلدون: المقدمة، م.1، ص.863

[2] محمد الغزالي: ليس من الإسلام، ص.118

أجسادها لتعود في أجساد أخرى وتستمر هذه العملية على الدوام.

ويرى أن القول بوحدة الوجود نفي للألوهية وعنوان آخر للإلحاد. يقول: « الماء مثلا مادة معروفة وقد شرح الكيميائيون أسلوب وجودها من عنصريها الأساسين، فالزعم بأنها إله أو جزء إله تحرص علمي سيسقط من تلقاء نفسه، وتبقى بعد ذلك العناصر وحدها دون أي وصف إلهي ...

ومن ثم قلنا: أن وحدة الوجود عنوان آخر للإلحاد في وجود الله وتغيير ملتو للقول بوجود الماء فقط، ومادام لا يوجد شيء وراء هذا العالم، فالقول بأن الله داخله صورة أخرى لنكرانه.

ولا أدري كيف يقول عاقل بوحدة الوجود إن كان حقا يؤمن بالله ويصدق المرسلين ...

لو كانت الأرض لؤلؤا ومرجانا لما صح أن تكون ذاتا لله، فكيف وهي إلى جانب ذلك حصى وبعر.»[1]

ويعتبر هؤلاء من المجاذيب وحالاتهم حالات مرضية لا أمارات صحة. ويضيف إلى ذلك الانحراف: القول بالفناء في الله يقول: « إن المتفاني في عشق امرأة لا يحوله الهيام إلى ضلع منها أو جهاز في بدنها ... والإيمان صراط مستقيم لا يحتمل بذرة من هذا الاعوجاج".[2]

ومن سلبيات الصوفية يذكر الشيخ إلى جانب ما سبق، تغليبهم جانب العاطفة على العقل، وتحكيم المشاعر التي أنسوا بها على شعائر الإسلام ومعارفه التي لم يعوها، ويرى أن من أسباب انتشار التصوف وارتماء الناس في أحضانه فشل المشتغلين بالشريعة وعلومها. « فقد كان اهتمامهم متجها إلى حروف الدين وصوره الظاهرة. فإذا تحدثوا في علم

---

[1] محمد الغزالي: ركائز الإيمان، ص.131

[2] محمد الغزالي: المصدر نفسه، ص.134

التوحيد أو علم الأخلاق صاغوا الدلائل ورسموا القواعد وفق ما يقضي به منطق أرسطو" ثم خاضوا بحارا من الجدل التافه لا ساحل له.»[1]

وبعد نقده للانحرافات الصوفية يقرر الشيخ، أن المثال العملي الأكمل للمعرفة التامة والإقبال على الله، يؤخذ من سيرة الرسولﷺ فإن انتباهه المشدود إلى الله – تبارك وتعالى – ما أوهى حسه بالحياة ولا علائقه بالخلائق.[2]

يقول: « وقد كان "محمد" بشرا كاملا عندما أسلم كيانه كله لله. وقف يصلي حتى تورمت قدماه، وقاوم الباطل حتى سال دمه، وعاش طول عمره في ومضات متصلة من ذكر الله، والتفاني في عبادته.

ومع هذه التقوى الغالبة كان يحب الحلوى، ويستعذب له الماء ويرتدي الثياب الحسنة.

فإذا عرضت أزمة لم يستح أن يرفع ثوبه، وأن يطوي بطنه ... كظما على صيحات المعدة الخاوية.

وكان زوجا رجلا، ورب بيت قادر، وأبا أولاد يحسن رعايتهم، تلك مظاهر الإنسانية النبيلة، وعناصرها الكاملة ...»[3]

ويخلص الشيخ إلى أن الموضوع الصحيح للتصوف الإسلامي يتكون من ثلاثة عناصر:

" أولها: جعل الإيمان النظري شعورا نفسيا غامرا، وتحويله من عقل يتصور إلى قلب يعي ويتحرك.

ثانيا: تجنيب النفس على ضوء نسبها الإلهي حتى تكون بنمائها واكتمالها أهلا للعبودية، مقتضى ذلك أن يكون الإنسان

[1] محمد الغزالي: ليس من الإسلام، ص.216

[2] محمد الغزالي: ركائز الإيمان، ص.134

[3] محمد الغزالي: المصدر نفسه، ص.78،79

مستجمعا للفضائل، متنـــزها عن الرذائل حـــتى يرشـــحه هـــذا الترقي لقبول الله ورضوانه.

آخـــرها: النظر إلى الوجود الصغير في هـــذه الحـــياة على أنه جزء من الوجود الكبير الممتد بعد الموت، فلا اغترار بالدنيا ولا استيحاش من الله، ولا ضيق بالعودة إليه ".[1]

- ثالـــثا / معـــالم مـــنهجـــــــه فـــــي عرض العقيدة:

⊆- يـــنطلق الشيخ محمد الغزالي في عرضـــه للعقيدة الإسلامية من قناعة قوية بـــأن العقل البشري عاجز عن إدراك ما وراء المـــادة، وأن مجـــال تحركه هو عالم الشهادة يقول: « النقعر في دراسة ما وراء المـــادة مـــرض أصاب المسلمين، ولوى مسيرتهم العلمية ليا شائنا، والمعروف أن الآيـــات المحكمة هي أم الكتاب، ومناط التكاليف الإعتقادية والعملية، وأنه بحسب المسلمين في عالم الخلق والسلوك، وعالم العقيدة والعبادة، وعالم القضاء والتشريع أن يعـــتمدوا عـــلى هذه الآيات المحكمة وحدها ... أما ما تشابه في الحديث عن ذات الله وصفاته فلا مجال للعقل في بحثه ... إن العقل البشري أعجز من أن يفقه حقيقة الروح بين جنبيه، بل أعجز من أن يفقـــه تحول الأغذية في جسده إلى طاقة وخلايـــا، فكـــيف يريد أن يعرف كنه الألوهية، واتصال الذات بالصفات؟"[2].

⊄- مـــن هـــذه القناعة تجنب الشيخ الخوض في مسائل علم الكلام إلا بالقدر الذي يخدم الواقع: «ونحن لا نهتم بتحديد الحـــق في هـــذه الإجابات قدر ما نهتم بالإبانة عن أن هذه البحوث كلها لغو من

---

[1] محمد الغزالي: ركائز الإيمان، ص.154

[2] محمـــد الغزالي: الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر، ص.61،62

القـــول، وأن المسلمين انكبوا عليها يوم اضـــطربت سياســـتهم الشرعية وقلت أنصـــبتهم من العمل النافع لأنفسهم من العالمين.»[1]

ويقصد بهذه البحوث:

- هل الوجود عين الموجود أم صفة خارجية؟
- هـــل صـــفات المعـــاني هي الذات، أم هي لا هي ولا غيرها؟
- هل القرآن كلام الله قديم أم حادث؟
- هـــل رؤيـــة الله ممكـــنة أم مستحيلة؟
- هل تعاد الأجسام بعد البعث بأعيانها أم أشباهها؟
- وهل وهل..؟

ويعتـــبر الشـــيخ كـــل تلك الجهود انطلاقـــا للأمـــة بغير قوامها، وإلى غير وجهتها والذي ركز عليه هو نقد بعض هـــذه الآراء التي لازالت تعيش إلى وقتنا الحاضر وتشل انطلاق الأمة إلى هدفها.

ومنها: قول الخوارج بتكفير العصاة، وتهويـــن المرجئة للأعمال. ويرجع سبب قـــول الخوارج إلى جهلهم بطباع البشر، وعجـــزهم عـــن فهم الأسباب الدخيلة والأصـــيلة في الانحراف، أما المرجئة فقد كـــانوا جهلة بحق الله – تبارك وتعالى – وعاجزين عن صيانة المجتمعات وتحصينها ضد التحلل والتعطب.[2]

يقول: « والغريب أني وجدت في هذا العصـــر الصنفين معا وأصحاب المنطقين الشـــاردين!!. إننا نشكو إلى الله، حكاما يخذلـــون الإســـلام ويمالئون الشيوعية أو الصليبية العالمية، وقبل ذلك نشكو إلى الله متدينين كذبة قست قلوبهم عن عباد الله،

---

[1] محمد الغزالي: ليس من الإسلام، ص.176

[2] محمد الغزالي: دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، ص.101

وذهبوا بأنفسهم مذهبا مستعليا، فهم يرمون بالكفر والفسق من شاءوا لا سناد لهم إلا فقه قليل، وترتيل كثير."[1]

⊂- نقد العقائد المنحرفة التي تمثل تحديات قديمة وحديثة للمسلمين: كاليهودية والنصرانية والاستشراق والفلسفات المادية. وهو يرى أن المسلمين يجب أن تكون لهم أقدام راسخة في كل مجالات المعرفة، وأن تكون إحاطتهم بالمذاهب الجائرة أكثر من إحاطة أهلها بها.[2]

⊆- الاستعانة بنتائج العلم الحديث في عرض العقيدة والاستدلال عليها. وهو يعتقد أنه لابد من الاستفادة من نتائج العلم الحديث في كل المجالات يقول: « ومتزلة علوم الكون والحياة في إنجاح الجهاد الإسلامي لا ريب فيها، ومن أجل ذلك فإن التفوق فيها أولى، من معرفة فروع شيء في فقه العبادات والمعاملات، إن صيانة الأصل أرجح وأهم...»[3].

ويرى أن هذه النتائج في مجال العلم الحديث كان من المفروض أن يكون لنا السبق في تحقيقها: « إننا نحن المسلمين والعرب خنا ديننا خيانة فاحشة، فلم نحسن النظر في شيء مع صراخ الوحي حولنا."[4]

﴿ أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء﴾[5].

ويقول: «.. وتبين بالموازنة المنصفة أن حديث القرآن عن بناء الكون وقوانينه، ووظائفه ينسجم مع الحقائق العلمية

[1] محمد الغزالي: المصدر نفسه، ص.101

[2] محمد الغزالي: المصدر نفسه، ص.179

[3] محمد الغزالي: المصدر نفسه، ص.179

[4] محمد الغزالي: المصدر نفسه، ص.181

[5] الأعراف – الآية: 185

انسجاما لم يعرف له شبيه في كتاب آخر.»[1]

∈- إن أفضل منهج لعرض العقيدة الإسلامية في نظر الشيخ هو منهج السلف. يقول: « وأنا إجمالا أمضي مع مذهب السلف بطبعي، وإن كنت أرفض نزعة التكفير.»[2]

ويقول: « إنه من فضل الله على سلفنا الأول أنه لم يتقعر في بحوث ما وراء المادة، و لم يحاول استكناه الغيبيات، بل كان جيلا مستقيم الفطرة سوي النظرة و أحسن علاقته بالله في العبادة الخاشعة وأحسن علاقته بالناس، فيما التزامه من خلق حسن وعدالة مطلقة، وقد أعانه ذلك على إبلاغ رسالة الإسلام، فشرق وغرب، وتألق وتأنق واندكت أمام عزماته الصعاب والعقبات.»[3]

ويرى أنهم لو انشغلوا بالجدل العقيم حول مسائل ما وراء المادة لبقي الإسلام منحصرا في شبه الجزيرة العربية.

والسلفية في مفهوم الشيخ ليست فرقة من الناس تسكن بقاعا من جزيرة العرب. وتحيا على نحو اجتماعي معين وتلبس لباسا خاصا « إن السلفية نزعة عقلية وعاطفية ترتبط بخير القرون، وتعمق ولاءها لكتاب الله، وسنة رسوله، وتحشد جهود المسلمين المادية والأدبية لإعلاء كلمة الله دون نظر إلى لون أو عرق، وفهمها الإسلام وعملها له يرتفع إلى مستوى عمومه، وخلوده، وتجاوبه مع الفطرة، وقيامه على العقل.»[4]

---

[1] محمد الغزالي: دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، ص.188

[2] محمد الغزالي: المحاور الخمسة للقرآن الكريم، ص.23،24

[3] محمد الغزالي: دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، ص.104

[4] محمد الغزالي: المصدر نفسه، ص.107

فالســـلفية في نظر الشيخ هي الانتماء بعقـــل نظيف ذكي إلى كتاب الله وسنة رسوله.

ﷺ- نـــبذ التعصب والفرقة: لقد دعا الشـــيخ إلى نـــبذ التعصب للرأي، وكان كـــثيرا ما يشير إلى أن الاختلافات التي كانت بين العلماء أغلبها يرجع إلى اللفظ ولا يستحق ما ثار حوله من غبار.

يقـــول: « إن التعصـــب الأعمـــى مرفوض! وعند التدبر، نجد أمرا لابد من إيرازه، إن السلف والخلف جميعا يسبحون بحمد ربهم ويقدسون له، ويرجون رحمته ويخـــافون عذابـــه، إنهـــم جميعا يؤمنون بوجـــوده وانـــه الحي القيوم، وأنه ليس كمـــثله شيء، وأن ما ينسبه إليه اليهود والنصـــارى من تجسد أو تعدد أو مظاهر بشرية خطأ محض!.

وعبارات السلف والخلف، تتجه كلها إلى تلـــك الغاية، وقد تضطرب أساليب الأداء، وإذا لم يكـــن الخلاف لفظيا فهو قريب من الخلاف اللفظي."[1]

وفي كتابه: "تراثنا الفكري بين الشرع والعقل" يقول:

« وقـــد أنعمـــت النظر في الخلاف القديم بين فكر السلف والخلف فوجدته أدنى إلى الخـــلاف اللفظـــي، إذ الإجماع منعقد على توحيد الله وتحميده وتمجيده، ونفي أي شائبة عن ذاته الأقدس ...

وتوجد اليوم عصابة من المتعالمين تريد أن تســـعر الـــنار، وأن تصب الزيت في الفرن الذي خمد لتعيد اشتعاله..

وتقع هذه المحاولات المجنونة في سنوات عجاف، يأكل فيها المسلم رغيفه من علم الغـــرب وعملـــه، والمضحك المبكي أن هـــؤلاء المـــتعالمين يصنعون المعارك على قضـــايا الغـــيوب، وهم يتسولون فتات

---

[1] محمد الغزالي: دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، ص.107

المعـــارف الأرضـــية ممـــن غلبوهم على أرضهم، وانفردوا بزمام الحضارة وحدهم ...

إنهم يقاتلون لإثبات أن الله خلق آدم عـــلى صـــورته، فإذا غلغلت البصر في شئونهم وجدت أن انتسابهم لآدم هو من ناحية الجسد!

أما من ناحية أن الله علم آدم الأسماء كلها، فالقوم يسمعون عن غزو الفضاء، وتسخير الذرة، فلا يعرفون قبيلا من دبير، وإنما ينادون من مكان بعيد!! إن الصحوة الإسلامية منتهية إلى الفشل يقينا إذا بقي لهؤلاء الناس صوت يسمع"[1].

ويدعـــو الشـــيخ إلى تجنـــب التكفير والـــرمي بـــالكلام البذيء إلا لمن أنكر معلوما من الدين بالضرورة والتعاون فيما اتفق عليه والعذر فيها اختلف فيه.

يقول: « والعلاج الفذ أن نتعاون فيما اتفقـــنا عليه، وهو كثير لا حصر له، وان يعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه، وهو قليل لا يتحمل المط والضغن.

أما أن أعتنق مذهبا ما في الأصول أو الفـــروع ثم أتعصـــب له، وأتحامل على الآخـــرين فذلـــك ليس من الدين، وهو عرقلة لسير الأمة الإسلامية بل هو إخماد لأنفاســـها، وإرهاق لروحها كما أنبأنا التاريخ..»[2]

ـ- الاهتمام بالآثار التربوية للعقيدة:

لقـــد اهـــتم الشيخ ببيان الآثار التربوية للعقيدة ولا نكاد نترك عنصرا من العناصر التي يبحثها إلا ونجد فيها كما هائلا من الآثـــار الـــتي تنتج عنها في حياة الإنسان المؤمـــن (الحديث عن الميلاد الذي يحدثه الإيمـــان للإنسان عموما، الآثار التربوية

[1] محمد الغزالي: مشكلات في طريق الدعوة الإسلامية، ص.120

[2] محمد الغزالي: دفاع عن العقيدة والشريعة، ص.211،220

لمعرفة معاني الأسماء الحسنى. وقد كان في ذلك متأثرا بأبي حامد الغزالي ...)

∇- التركيز على البعد الحضاري: ولأننا نعيش أزمة حضارة، نلاحظ أن كل أعمال الشيخ موجهة للإنعاش الحضاري للأمة الإسلامية وإعادة إحياء تفاعل الإنسان المؤمن مع الحياة بالإيمان النقي النظيف الذي يصبغ كل مظاهر الحياة.

®- الاهتمام بإظهار التأطير العقدي للأحكام الشرعية. ونلاحظ ذلك بخاصة من خلال أعماله في مجال: تفسير القرآن الكريم.

● رابعا / بعض قضايا العقيدة الإسلامية التي تناولها

وسأتحدث على قضايا العقيدة الإسلامية التي تكلم عنها الشيخ ليس اعتمادا على التقسيم الذي اتبعه في كتابه: عقيدة المسلم، وإنما على تقسيم آخر ورد له في كتاب: كيف نفهم الإسلام، و"كلاهما يصل إلى النتائج نفسها".

وفي كتابه: "كيف نفهم الإسلام"، ذكر الشيخ أن العقيدة الإسلامية ناحية إلهية وناحية إنسانية.

1- الناحية الإلهية تقوم على حق الله – تبارك وتعالى – في أن يعرف على وجه صحيح.

- فمادام واحدا، فلماذا تفتري له شريكا؟
- وإذا كان قد أحاط بكل شيء علما، فكيف نظن بعض أحوالنا يخفى عليه؟
- وإذا كان يؤوي المستجير به، فلماذا نهجر كنفه الرحب إلى غير كنف؟
- ومادام المصير إليه حتما، فلماذا نجحد لقاءه أو نستهين بهذا اللقاء؟
- ومادام قد أمر ونهى، وقضى وحكم، فكيف يجحد أمره ونهيه وقضاؤه

وحكمه، ويلتمس بدلا عن ذلك العوض الخبيث، فيما تصنع الشياطين للناس؟[1]

2- الناحية الإنسانية: وتقوم على رفع مستوى الإنسان حتى يكون أهلا لأداء الوظيفة التي نيطت به في الوجود. على أساس تتفق مع شرف نسبه الإلهي وأصل خلقته.[2]

وسأركز على إجابة الشيخ على بعض هذه الأسئلة تاركة الحديث عن الناحية الإنسانية، وما يتعلق بها إلى مقام آخر.

ولعل الملاحظة التي نستنتجها من خلال تقسيم الشيخ للعقيدة الإسلامية من خلال الأسئلة التي طرحها فيما يتعلق بالناحية الإلهية هي: شمولها على اختصارها لكل ما يتعلق بالإسلام تقريبا. وهو يتفق في ذلك مع الشيخ محمد رشيد رضا الذي جعل أركان الدين في كتابه الوحي المحمدي تنحصر في:

←- الإيمان بالله – تبارك وتعالى –

↑- الإيمان باليوم الآخر

→- العمل الصالح

أ- معرفتنا بالله – تبارك وتعالى -:

لقد أرشدنا الله – تبارك وتعالى – إلى منهج معرفته ويقوم هذا المنهج على إيقاظ البصائر والأبصار إلى ما في الكون الكبير من شواهد، وآثار، إنه يقوم على " انتزاع الأدلة الحية من صفحات هذا العالم الذي نحيا بين أرضه وسمائه، بل انتزاع هذه الأدلة من كيان الإنسان نفسه منذ أن يولد إلى أن يموت."[3]

يقول تبارك وتعالى: ﴿**فلينظر الإنسان مم خلق () خلق من ماء دافق () يخرج من بين الصلب والترائب () إنه على**

[1] محمد الغزالي: كيف نفهم الإسلام، ص. 102،103

[2] محمد الغزالي: كيف نفهم الإسلام، ص. 103

[3] محمد الغزالي: المرجع نفسه، ص.99

رجعه لقادر ﴾[1].

ويقـــول: ﴿**بـــل كذبـــوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج () أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومـــا لها من فروج () والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج () تبصرة وذكرى لكل عبد منيب** ﴾[2].

ويرى الشيخ أن هذا المنهج فيد دعوة للإنســـان المؤمن إلى امتلاك هذا الكون وكشـــف أســـراره، لأنه كلما اكتشفها ازداد معـــرفة بـــالله، وتمكنا من السيطرة والتسخير له (أي الكون) يقول – تبارك وتعالى –: ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾[3].

إلا أن هذا المنهج أهمل عند المسلمين، فنلاحظ غيابه في تراثنا الفكري. يقول: « ولقـــد كان جديرا بالمسلمين أن يفكروا في الكـــون وينتهزوا فرصة حياتهم على الأرض، لـــيعرفوا عظمـــة رب العالمين، بدراسة خواص المادة، والقوانين السارية بين شتى العناصر ...

إن الله لا يعـــرف بدراسة ذاته، فهذا مســـتحيل، وإنما يعرف بدراسة ملكوته الضخم واستجلاء الآيات الدالة عليه – هـــنا وهناك – لا بأسلوب شعري هائم، ولكن بأسلوب علمي صارم.»[4]

وفي موضـــع آخـــر يقرل: « إننا لن نعرف الله المعرفة الصحيحة إلا إذا درسنا العالم الذي خلقه وأودع في تضاعيف هذا الخلق دلائل عظمته ومعاني أسمائه الحسنى، والإيمـــان الذي دعا إليه القرآن هو ثمرة الدراسة الواعية للكون الكبير، وما انبث

---

[1] الطارق – الآية: 5–8

[2] ق – الآية: 5–8

[3] فاطر – الآية: 28

[4] محمـــد الغزالي: الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر، ص.64،65

في جوانبه من أحياء."[1]

إن العقل السليم إذا تجرد من التعصب، لا يمكنه أن ينكر وجود الله – تبارك وتعالى – حتى وإن كان غير مهتد بالوحي، لأن الله –ﷻ– أودع فيه القدرة على ذلك، وبث في العالم ما يرشده إلى معرفته – سبحانه وتعالى – فما بالك إذا كان هذا العقل مهتديا بوحيه.

وفي حديثه عن ذلك يأتي الشيخ برأي بعض علماء الغرب في الإقرار بوجود الخالق انطلاقا من تأملهم في الكون.

– فهذا سبنسر يقول: "إننا مضطرون إلى الاعتراف بأن الحادثات مظاهر قدرة مطلقة متعالية عن الإدراك، وأن الأديان كانت أول من قبل هذه الحقيقة العلوية، ولقنها، ولكنها نشرت أول الأمر ممزوجة بالأباطيل."[2]

– ويقول "كلفن": "يتعذر على الإنسان أن يتصور بداية الحياة أو استمرارها دون أن تكون هنالك قوة خالقة مسيطرة وإني لأعتقد من صميم نفسي أن بعض العلماء في أبحاثهم الفلسفية عن الحيوان قد أغضوا إغضاء عظيما مفرطا عما في نظام هذا الكون من حجة دامغة، فإن لدينا فيما حولنا براهين قوية قاطعة على وجود نظام مدبر وخير، وهي براهين تدلنا بواسطة الطبيعة على ما فيها من أثر إرادة حرة، وتعلمنا أن جميع الأشياء (الحية) تعتمد على خالق واحد أحدي أبدي."[3]

– وبعده يقول "انشتاين": "إن جوهر الشعور الديني في صميمه هو أن نعلم بأن

---

[1] محمد الغزالي: ركائز الإيمان بين العقل والقلب، ص.128

[2] نقلا عن محمد الغزالي: عقيدة المسلم، ص. 21

[3] محمد الغزالي: الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر، ص.64،65

ذلك الذي لا سبيل لمعرفة كنه ذاته، موجود حقا، ويتجلى بأسمى آيات الحكمة وأبهى أنوار الجمال، وإنني لا أستطيع أن أتصور عالما حقا لا يدرك أن المبادئ الصحيحة لعالم الموجود مبنية على حكمة، تجعلها مفهومة عند العقل، فالعلم بلا إيمان، يمشي مشية الأعرج، والإيمان بلا علم يتلمس تلمس الأعمى."[1]

ب - مادام الله -ﷻ- واحدا، فلماذا نفتري له الشريك؟ ونهجر كنفه إلى غير كنف؟

وحين يتحدث الشيخ عن وحدانية الله - تبارك وتعالى - يسوق الآيات القرآنية التي تغني عن الكلام الكثير، وباستقراء ما توهمه الناس شركاء الله في ألوهيته، لا يوجد أحد من هؤلاء الشركاء المزعومين ترشحه حالته ليكون في هذا الوجود شيئا طائلا.

يقول - تبارك وتعالى -: ﴿ **ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون** ﴾[2].

ويقول: ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون** ﴾[3].

وعلى ضوء هذه الآيات يتساءل الشيخ: « إن كان هذا الإله موجودا مع الله، فما موقفه منه؟ بل - أولا - ما هي مترلته منه؟ إن كان دونه مترلة ومكانة، فليس بإله، وإن كان أعلى منه فهو أحق منه بالألوهية، وإن كان مثله، فما هي الحدود والفواصل بين عمليهما واختصاصيهما؟ [4]

---

[1] نقلا عن محمد الغزالي: المصدر نفسه والصفحة

[2] المؤمنون - الآية: 91

[3] الأنبياء - الآية: 22

[4] محمد الغزالي: عقيدة المسلم، ص.56،57

ويعرض دعاوي المنحرفين عن الحقيقة كفرعون، والنمرود، والنصارى. وكلنا يعرف رد القرآن على هذه الأقوال، كما عرض المقارنات التي أتى بها القرآن الكريم، والتي توصل كل ذي عقل سليم إلى أن الله إله واحد لا شريك له. وفي الإقرار بوحدانيته تحقيق لعزة وتكريم الإنسان.

ومنها قوله – تبارك وتعالى –: ﴿ **إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين** ﴾[1].

ويقول –ﷻ–: ﴿ **إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير** ﴾[2].

ويقول –ﷻ–: ﴿ **أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار** ﴾[3].

ويقول: ﴿ **ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون** ﴾[4].

ويرى الشيخ أن هذه النصوص تصون الإنسان من الوقوع في دنس الشرك، والواقع العملي ينطق بوحدانية الله –تباك وتعالى – وما الآخر المزعوم إلا خيالات للعقول المريضة.[5]

إن اليقين بوحدانية الله – تبارك وتعالى – يغني الإنسان المؤمن عن اللجوء إلى غيره. وقد حارب الشيخ مظاهر الانحراف العقدي، وذلك بالرجوع إلى نصوص القرآن. والدعوة إلى إخلاص التوحيد، وهذا الإخلاص يترجمه التوجه بالعبادة

---

[1] الأعراف – الآية: 194

[2] فاطر – الآية: 14

[3] يوسف – الآية: 39

[4] الزمر – الآية: 29

[5] محمد الغزالي: عقيدة المسلم، ص.50

والدعاء إلى الله – وحده لا شريك له.

يقول: « وقد كان إمام الأنبياء يغرس هـذه المعاني في قلوب المؤمنين حين كان يدعو في تهجده: *اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت.*»

نعم إن الله واحد ويتصف بجميع صفات الكمال، ولا يمكننا أن نعي معاني هذه الصفات إلا من خلال تجلياتها في الكون وفي أحكام الله -ﷻ- وبعضها لا يمكن للعقل أن يتوصل إلى إدراك حقيقتها مهما بذل من جهود. لقد عرض الشيخ الصفات من خلال آيات الذكر الحكيم، ليس بمنهج المتكلمين وعاب عليهم خوضهم في ذات الله – هل صفاتها عينها؟ أو غيرها؟ أو لا عين ولا غير؟.

وقد نقل كلاما لعبد الكريم الخطيب يرى أنه من أحسن ما قيل في المسألة يعطى نظرة وسطا لمفهوم الإله في شريعة الإسلام فهو « ... لم يكن شيئا ماديا. كما لم يكن فكرة مجردة.

وإنما اختار الإسلام لمفهوم الإله – في أذهان البشر – مقاما وسطا بين هذين، بين التجسيد والتجريد. فحيث ينظر الإنسان إلى الله في القرآن الكريم يجد "الله" سميعا، بصيرا، عالما، قادرا، حكيما، مريدا، يحي ويميت، وهو على كل شيء قدير، قائم على الملك مستو على عرشه والملائكة من حول العرش لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

وهذا من شأنه أن يخيل للإنسان صورا ما "للذات"

ثم ينظر المسلم في كتاب الله فيرى الله "ليس كمثله شيء" ... ويعمل هذا المفهوم عمله في تفكير الإنسان، فتأخذ تلك المفاهيم التي كانت قد بدأت تتشكل وتتجسد "تأخذ في الذوبان" كما تذوب

صخور الثلج في عباب المحيط.

ذلك في إيجاز – هو الذي يقع في إدراكي للمفهوم الذي أراد القرآن أن يقيمه في عقول الناس وقلوبهم ...

وذلك المفهوم، ضروري – كما قلنا – لكي نستشعر "الذات" ونتجه إليها، ونرفع لها صلواتنا ودعواتنا ...

أما حقيقة هذه الذات فأمر وراء كل ما نتصور ...

ولكن لما لم يكن بد من أن نتصور، فقد أسعفنا القرآن الكريم بالقدر الضروري الذي يسد حاجيتنا في هذا المقام، نجعل للإله مفهوما غير مجسد "ذاتا" لها العلم والقدرة والإرادة والسمع، والبصر، وغير ذلك من صفات الكمال التي تليق برب العالمين ... الله ذات ... ولكن ليس كمثله شيء!![1].

لقد تعرض الشيخ لحقيقة الألوهية بلفت الأنظار إلى ما في الكون من تجليات تدل على وجوده ووحدانيته وأسمائه وصفاته – سبحانه وتعالى – مقتفيا في ذلك منهج السلف مقتنعا بأن التأويل مطلوب ما لم يؤد إلى تعطيل كما هو الأمر مع "المعتزلة" وهو مع التفويض أيضا ما لم يؤد إلى تجسيم.[2]

ج – مادام المصير إليه حتما، فلماذا نجحد لقاءه أو نستهين بهذا اللقاء؟

لقد كرم الله – تبارك وتعالى – الإنسان بأن وعده بالخلود في الدار الآخرة، وكم يحب الإنسان الأشياء التي تحقق له الاستمرار، فهو يشتري منها التي تبقى مدة أطول، ويحب ترك الإنتاج الفكري لأن فيه تخليدا لأمه، ويحب الأولاد، لأنه يرى في وجودهم امتدادا

[1] نقلا عن محمد الغزالي: عقيدة المسلم، ص. 42،43

[2] محمد الغزالي: مشكلات في طريق الدعوة الإسلامية، ص.137

لحـــياته. وحين يحتقر الأشياء الدنيا يقول عنها إنها فانية. وتشاء إرادة الله -ﷻ- أن يكرم الإنسان بأن جعل جزاء وجوده الـــنقي في الحياة الدنيا، الخلود السعيد في الجنة.

وقـــد عقـــد القرآن الكريم مقارنات كـــثيرة بـــين الحياة الدنيا والحياة الآخرة تكشـــف عن حقيقة كل منهما. ومنها قوـــله – تبارك وتعالى -: ﴿ **وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون** ﴾ [1].

ويقول: ﴿ **اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفـــار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفـــرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ﴾[2].

ويقـــول: ﴿ **إنمـــا مثل الحياة الدنيا كمـــاء أنزلـــناه من السماء فاختلط به نـــبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظـــن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لـــم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقـــوم يتفكرون(24)والله يدعو إلى دار الســـلام ويهـــدي من يشاء إلى صراط مستقيم**﴾[3].

ويقـــول: ﴿**وما هذه الحياة الدنيا إلا لهـــو ولعـــب وإن الـــدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون** ﴾[4].

إن الخطـــاب القرآني يكشف أمامنا حقـــائق الأمور ويترك لنا حرية الاختيار.

---

[1] الأنعام – الآية: 32

[2] الحديد – الآية: 20

[3] يونس – الآية: 24،25

[4] العنكبوت – الآية: 64

فقـــد عرفنا بحقيقة الدنيا، لكنه لم يحجر على الإنسان. أن يستمتع بها ضمن حدود وضـــوابط ترتقي بإنسانيته، وتجعله حذرا متوخيا لما يعطيه الأمل في سعادة الخلود.

ويذكـــر الشيخ أن المسلمين ما فهموا الخطاب القرآني للإنسان عن هذه الحقيقة فولـــوا الدنيا ظهورهم، وظنوا أن ضمان العـــيش السعيد في الأخرى يكون بالزهد في الأولى وهجرانها، وقد جر عليهم ذلك انحطاطـــا وتراجعا حضاريا. يقول: « إن الـــتماوت قـــبل الموت هرب وضيع من وظيفة المرء في الوجود ونكول عن حمل تكالـــيف الحياة وجهالة بأسرار الحكمة العليا، وهذا التماوت لا يمكن أن يكون دينا، إن الدين حركة إصلاح للحياة إذا شـــردت، وتوجـــيه لقواها الدائبة كيف تعرف ربها وتتقيه.»[1]

إن الدنيا التي يحتقرها الإسلام هي التي تهبط بقيم الإنسان وتنحدر بتقويمه الحسن إلى أســـفل سافلين "الدنيا التي تشغل عن الله، وتـــلهي عن الآخرة الدنيا التي يركن إليها الجبناء، فلا يقولون كلمة حق خوفا من ضياعها أو نقصانها!

الدنـــيا الـــتي يتعلق بها البخلاء، فلا ينهضـــون إلى بذل معروف استكثارا من متاعها، والتصاقا بدناياها.

الدنـــيا التي يعيشها طلاب الظهور، فيربطـــون ســـلوكهم بما يلقون فيها من تكريم ولو كان على حساب الحق.

الدنيا التي ينحصر القاصرون في مآربها ومطالبها، كما ينحصر الجنين في ظلمات الرحم، أو ينحصر الفرخ في قشر البيضة! الدنـــيا التي شاء الله أن تكون ملكا لنا، فجـــاء صغار الهمم وأبوا إلا أن يكونوا ملكا لها ...»[2]

إن التمادي في التمسك بالحياة الدنيا

---

[1] محمـــد الغزالي: كيف نفهم الإسلام، ص. 39

[2] محمـــد الغزالي: كيف نفهم الإسلام، ص. 64

يجعل الإنسان مستغافلا عن الآخرة، ومصيره الذي هو حتم.

✔ **ومادام المصير إليه حتما. لماذا نجحد لقاءه؟**

يعتقد الماديون أن الإنسان عبارة عن آلة، تتوقف حركتها بعد أن تصبح عاجزة عن العمل، وينتهي كل شيء. وتأتي الحقيقة القرآنية لتأكد لنا أن هذه الحياة الدنيا ما هي إلا معبر إلى الحيوان، وأن الله -ﷻ- الذي يتصف بجميع صفات الكمال، اقتضت حكمته أن تكون الحياة الآخرة هي الدار الباقية التي يحاسب فيها كل إنسان، فيجازي المحسن على إحسانه، ويعاقب المسيء على إساءته يقول -ﷻ-: ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون () ليبين لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين () إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون** ﴾[1].

ويأتي الشيخ في استدلاله على حدوث البعث، بالأدلة القرآنية وهي في جملتها لفت للأنظار إلى بدهية مسلمة:

فالذي بدأ الخلق يستطيع إذا أفتاه أن يعيده يقول تبرك وتعالى: ﴿ **ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا () أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يكن شيئا** ﴾[2].

ويقول -ﷻ-: ﴿ **أفرأيتم ما تمنون () أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون () نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين () على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون () ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون**﴾

يقول الشيخ: « وهذا الخلق المعاد،

---

[1] النحل - الآية: 38-40

[2] مريم - الآية: 66-67

[3] الواقعة - الآية: 58-62

تتكرر تحت أعيننا صور شتى له كل يوم. بل كل لحظة، فالرجل من حيث لا يشعر تصنع غدده الجنسية ألوف الألوف من الحيوانات المنوية.. وفي واحد منها فقط أساس كامل لبشر كامل.»[1]

ومن الحديث النبوي يأتي الشيخ بحديث الرسولﷺ عن أبي رزين العقيلي، قلت: " يا رسول الله: كيف يعيد الله الخلق وما آية ذلك؟ قال: أما مررت بوادي قومك جدبا، ثم مررت به يهتز خضرا؟ قال: نعم، قال: فتلك آية الله في خلقه، كذلك يحي الله الموتى."[2]

إن استدلال القرآن على حدوث البعث يتجه في عمومه إلى قياس ما هو غائب على ما هو مشاهد.

وفي الاستدلال على ذلك يستأنس الشيخ – أيضا – بنتائج العلم الحديث، وذلك حين تفسيره للآيات التي تحدثت عن البعث ومنها قوله تبارك وتعالى: ﴿ **وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحي العظام وهي رميم () قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم () الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون () أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم** ﴾[3].

يقول: « ثم لفت القرآن نظرنا إلى حقيقة علمية في عناصر الكون إننا نتنفس فنأخذ من الهواء "الأوكسيجين" ثم نرده "كربونا" وينتفس النبات فيأخذا لكربون، ويرسل "الأوكسيجين" ويتراكم غاز الكربون الذي يأخذه النبات، ويتجمد في كيانه، جذوعا وأغصانا وأوراقا لا

[1] محمد الغزالي: عقيدة المسلم، ص.233

[2] أخرجه الإمام أحمد في مسنده (4/11،12) عن أبي رزين.

[3] يس – الآية: 77-80

تلبث أن تكون حطبا محترقا.»[1]

وحين نتتبع أي الذكر الحكيم نلاحظ أن أغلب الآيات التي تحدثت عن مراحل خلق الإنسان، وردت في موطن الاستدلال على حدوث البعث. وفي ذلك إثبات أن الذي خلق الإنسان أول مرة قادر على رجعه مرة أخرى. وأن هذه الآيات فيها دلالة قوية على صدق الرسالة، لأن هذه النتائج العلمية لم يتوصل إليها العلماء إلا حديثا.

وفي تفسير قوله – تبارك وتعالى: ﴿ **فلينظر الإنسان مم خلق () خلق من ماء دافق () يخرج من بين الصلب والترائب () إنه على رجعه لقادر** ﴾[2].

يقول الشيخ: « تفاصيل الخلق الإنساني مشروحة في علم الأحياء، وقد عرفت بعض علماء الغرب، الخبراء في علم الأجنة أعلنوا إسلامهم للدقة التي تحدث بها القرآن عن أطوار الخلق ومراحله، ولا يعرف هذا في كتاب سابق ... لكن الإنسان كفور، وأيا ما كان الأمر فهو عائد لحساب مر»[3]. ﴿ **يوم تبلى السرائر () فما له من قوة ولا ناصر** ﴾[4].

لقد أثبت القرآن الكريم لمنكري البعث أحقيقة التي لا يمكن تجاهلها إلا من معاند مكابر، وأقام أدلته على ذلك على أساس العقل والمشاهدة الحسية، فإذا أنكر الإنسان ما يقدمه له عقله من إضاءات أكدتها له مشاهدته الحسية – فما يبقى أمامه إلا الإيمان والاستعداد للحياة الأبدية، فإذا تمادى في إنكاره وجهله، حشره الله سبحانه يوم القايمة أعمى،

---

[1] محمد الغزالي: نحو تفسير موضوعي للقرآن الكريم، الأجزاء العشرة الأخيرة، ص.40

[2] الطارق – الآية: 5،4

[3] محمد الغزالي: نحو تفسير موضوعي للقرآن الكريم، الأجزاء العشرة الأخيرة، ص.207

[4] الطارق – الآية: 5،4

وخلده في نار جهنم. يقول تبارك وتعالى: ﴿**ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى () قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا () قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى () وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى**﴾[1].

✔ **لماذا نستهين بهذا اللقاء؟**

إن الاستهانة بلقاء الله – تبارك وتعالى – تجعل الإنسان عبثيا في حياته، أما اليقين بهذا اللقاء، فيجب أن يعلمنا استشعار المسؤولية في كل مل نقدم عليه من عمل، والشعور بالرقابة الإلهية المسؤول، هو الكفيل بأن يجعل الإنسان متقنا لكل ما يقدم عليه من عمل، وبذلك يشارك في الارتقاء بالإنسانية والحضارة.

والاستهانة بلقاء الله – سبحانه وتعلى – تورث الإنسان الغفلة عن اللقاء القريب وعدم الإكتراث بحركاته في هذه الحياة، ونحن في حاجة ماسة إلى التفكر الدائم في حقيقة الصلة بين هذه الحياة الدنيا والحياة الآخرة.

يقول الشيخ: « تمر بنا الجنائز في طريقها إلى مثواها الأخير فنلقي عليها النظرات عابرة!!

وربما طاف بنا طائف من الكآبة، لكن سرعان ما تغلبنا نشوة الحياة فننسى ما رأينا ثم نذبل عن التفكير فيه وفيما وراءه.»[2]

ويقول: « فلنؤمن بالله واليوم الآخر. ولنثق بأن حياتنا ممتدة بعد مغادرة هذه الأرض ولنعلم علم اليقين أن العبث والفسوق في هذه الدار الأولى يعقبان الويل والثبور في الدار الآخرة، مهما لقي العابث في الدنيا من راحة وإغفال.

---

[1] طه – الآية: 124-127

[2] محمد الغزالي: هذا ديننا، ص.25

وأن الجد والصلاح يثمران، أجمل العواقب مهما لقي الجاد من غمط وإهمال"[1].

وقد يتوهم بعض الناس أن الجزاء في الحياة الآخرة مرتبط بمشيئة الله العليا، لا بما يقوم به من عمل في الحياة الدنيا، وهذه الفلسفة عملت على إسقاط قيمة العمل في الحياة، وأدت إلى تلويث المجتمع وإهانة الدين وتعاليمه.[2]

وفي هذا يقول الله – تبارك وتعالى –: ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون** ﴾.

ويقول: ﴿ **أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار(28) كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب** ﴾[4].

وهاتان الآيتان تؤكدان ما سبقت الإشارة إليه، من تأكيد ارتباط الجزاء بالعمل.

وفي الختام أشير إلى أنني اقتصرت في الحديث عن عقيدة البعث من خلال ما كتبه الشيخ على بعض الجزئيات فقط، أما إذا تتبعنا كتبه فإننا نلاحظ أنه قد تكلم عن كل ما يتعلق بهذه العقيدة: الحياة البرزخية، الصراط، الميزان، الشفاعة، الجنة، والنار. وكان في ذلك مطبقا للمنهج الذي دعا إليه وهو تجنب الجدل القديم، متوخيا الأبعاد التربوية والحضارية التي من شأنها الارتقاء بالأمة معتمدا في ذلك على نصوص القرآن والسنة النبوية والمنطق السليم.

---

[1] محمد الغزالي: المصدر نفسه، ص.47

[2] محمد الغزالي: عقيدة المسلم، ص.225

[3] الجاثية – الآية: 21

[4] ص – الآية: 28،29

د- مادام أمر ونهى، وقضى وحكم، فكيف يجحد أمره ونهيه وقضاؤه وحكمه، ويلتمس بدلا عن ذلك العوض الخبيث فيما تصنع الشياطين للناس؟

وتحت هذا السؤال بحث اهتمام الشيخ بالتأكيد المستمر على أن الإيمان بالله، والمعرفة الصحيحة به تقتضي العمل بما أمر به واجتناب ما نهى عنه. ولأن ذلك مرتبطا ارتباطا وثيقا بالإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر. يقول: « فإذا آمن الإنسان بالله العظيم، وأيقن باليوم الآخر وصدق بما جاء به المرسلون، دفعه ذلك لا محالة إلى استرضاء ربه والاستعداد للقائه، والاستقامة على صراطه.»[1]

ومما أصيب به المسلمون أن دس لهم من يصور لهم أن الإسلام كلمة لا تكاليف لها وأماني لا عمل معها، وتحت هذا المفهوم نشأ المسلم، ولا تكاد تفرق بينه وبين اليهودي، والمسيحي فالكل لا يعطي اعتبارا لما أمر به الله -ﷻ- وغاية ما بينهم من فوارق أن اليهودي يقدس يوم السبت، والمسيحي قد يذهب إلى الكنيسة خلسة، أما المسلم فلا يربطه بالإسلام إلا ما هو مسجل على شهادة الميلاد.[2]

ويستدل الشيخ بالنصوص الكثيرة التي تفيد الارتباط بين الإيمان والعمل مؤكدا أن ما أصاب المسلمين من تراجع حضاري إنما يرجع إلى هذه المفاهيم الخاطئة.

ومن النصوص التي أتى بها قوله -تبارك وتعالى-: ﴿ **وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء** ﴾[3].

---

[1] محمد الغزالي: عقيدة المسلم، ص.131

[2] محمد الغزالي: المرجع نفسه، ص.131، 132

[3] غافر - الآية: 58

ويقـــول: ﴿ **فلا اقتحم العقبة () وما أدراك ما العقبة () فك رقبة () أو إطعام في يوم ذي مسغبة () يتيما ذا مقربة () أو مسكينا ذا متربة () ثم كان من الذين آمـــنوا وتواصـــوا بالصـــبر وتواصوا بالمرحمة** ﴾[1].

والعلامة التي ينصبها القرآن دليلا على فـــراغ النفس من العقيدة وخراب القلب مـــن الإيمان هي في النكوص على القيام بـــبعض ألأعمال الصالحة يقول -تبارك وتعـــالى-:﴿ **أرأيت الذي يكدب بالدين فذلـــك الذي يدع اليتيم ولا يحط على طعام المسكين** ﴾[2].

كما يستدل على الارتباط بين الإيمان والعمـــل، يكون الأعمال هي التي توزن يوم القيامة يقول: « ثم ما الذي يوزن في الـــدار الأخرة؟ أليست الأعمال التي تميل بالإنســـان إلى النعـــيم أو الجحـــيم، أو الدعاوي والمزاعم.»[3]

ومـــن النصوص التي يستدل بها وهي في قمـــة البلاغة في التأكيد على وجوب العمل.

الحديـــث الـــذي ورد في سورة آل عمران عن أولي الألباب الدين اهتدوا إلى الحـــق هاتفين:﴿ **ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا** ﴾[4].

كمـــا تضرعوا يطلبون من الرحمن أن يصفح عن زلاتهم ويرزقهم الجنة:﴿ **ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مـــع الأبرار ()ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة** ﴾[5].

ويعلق الشيخ على هذه التضرعات: « مع هذه الحرارة في الدعاء والإخلاص في

---

[1] البلد – الآية: 11-18

[2] الماعون – الآية: 1 – 3.

[3] محمد العزالي: عقيدة المسلم، ص.134

[4] آل عمران: 193

[5] آل عمران: 194

الـــتوجه، أعلن الحق أن استجابته مقرونة بالعمل وحده، وأن الكلام – فحسب – لا يـــروج وأن تحقيق هذا الرجاء مرهون بجهاد وتضحيات وتكاليف.» [1]

يقول تعالى: ﴿ **فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنـــثى بعضـــكم مـــن بعض فالذين هاجـــروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم ســـيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار** ﴾[2].

كمـــا يستدل الشيخ بالأمم التي تحدث القـــرآن الكريم عن دمارها بسبب تفريطها في الجانـــب العمـــلي: كقـــوم لوط وقوم شعيب.....

ويذكـــر الشـــيخ أن الإيمان لما كان مرتبطا بالعمل، فهو يزيد وينقص، يقول:

« إن الإيمـــان يـــزيد وينقص، وآثاره في الـــنفس والحياة تمند وتنكمش، والزيادة والنقصـــان ليسا في أصل المفهوم العقلي وإنما في كمه وكيفه.

والإيمـــان في بعض الناس قد يتحول إلى حـــياة تصبغ الشعور والفكر وتهيمن على الحـــركات والسكنات، وتجعل صاحبها في نهار دائم من الأنس بالله وألف عظمته....

ومن ثم لا يتفاضل المسلمون في أصل عقيدة التوحيد، وإنما يتفاضلون فيما يبلغه التوحيد في تفوسهم من أبعاد وآماد.

ومـــن الجـــور أن نسوي بين العميق والضـــحل والمـــتين والضعيف، وأقدار المؤمـــنين عند الله وحظوظهم من مثوبته تتبع درجات إيمانهم.

واكتمال الإيمان يوصل إليه بعد جهاد طويل ورياضة متصلة...»[3]

---

[1] محمد الغزالي: عقيدة المسلم، ص.134

[2] آل عمران: 195.

[3] محمـــد العـــزالي: ركائز الإيمان بين العقل والقلب، ص.122

لقد ناقش الشيخ هذه المسألة: الارتباط بين الإيمان والاستجابة لأوامر الله -ﷻ- لتعلقها بواقع المسلمين إذ أصبح أغلبهم يميل إلى الفكر الإرجائي. ويتبنى التصور العلماني ويحارب تعاليم الإسلام داخل أرضه.

وخلاصة القول:

لقد كانت هذه بعض الملامح لمنهج الشيخ محمد الغزالي في عرض العقيدة الإسلامية، فقد كان مهتما بتنقية التراث الفكري العقدي مما شابه من إنحراف متوخيا بذلك إصلاح أوضاع المسلمين لا التحامل على اتجاه من الاتجاهات، محترما لكل من اجتهد مبتغيا إيصال الحق وإن أخطأ في ذلك.

وقد عمل على احياء المنهج القرآني الذي يخاطب الكيونة البشرية كلها مرتقيا بها إلى أن تكون أهلا لعبادة الله – سبحانه – بتحرريها من جميع مظاهر الانحراف العقدي، موجها لها إلى الهيمنة على الكون بإحياء المنهج التحريبي الذي نما وترعرع في أحضان المسلمين الذين فهموا الخطاب القرآني فهما صحيحا: فحققوا بذلك الارتقاء المعرفي والارتقاء الإستخلافي.

وحاول الشيخ في كتاباته الإلمام بمقاصد العقيدة الإسلامية، فعاش مدافعا عن القيم التي يغرسها الإيمان مؤكدا أننا لن نستعيد رفعتنا إلا بها.

يقول: « لكي نصل إلى مستوى عال للتربية المنشودة، يجب أن نصون أولا العقائد ونستبقي لها قداستها، فإن الإيمان بالله واليوم الآخر والطمأنينة المطلقة إلى ما جاء عن الله ورسوله اسس مكينة للتربية الكاملة، بل إن أنواع السلوك ترتبط بالعقيدة كما ترتبط العربات بالقاطرة الدافعة ...»[1]

إن العقيدة المبنية على أسس سليمة

---

[1] محمد الغزالي: كيف نفهم الإسلام، ص. 161.

مهـــتدية بالقرآن والسنة مدركة لحدود العقل هي التي تجعل الإنسان مرتبطا بعرى وثيقة تصل حياته بآخرته، ولذلك وجب الحرص على عدم ترك الفرصة لغيرها من العقائد تنمو وتمتد وسط فراغنا الروحي.

قائمة المصادر والمراجع

1- محمد الغزالي:

1. تـــأملات في الدين والحياة – دار الكتب الحديثة لصاحبها: توفيق عفيفي.
2. تراثنا الفكري بين الشرع والعقل – نشر مشترك: دار المعرفة ودار ريحانة.
3. الدعـــوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر – دار القلم – الكويت – 1983.
4. دســـتور الوحـــدة الثقافـــية بين المســـلمين – دار الكتب – الجزائر – 1988م.
5. ركائز الإيمان – دار بوسلامة – تونس – 1985م.
6. دفاع عن العقيدة والشريعة – دار الشروق – ط.1 – 1987م.
7. عقـــيدة المســـلم – دار الشهاب للطباعة والنشر.
8. مشـــكلات في طـــريق الدعوة الإســـلامية – إصـــدار رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية – قطر.
9. المحـــاور الخمسة للقرآن الكريم – دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع.
10. هذا ديننا – دار الشروق – ط.1 – 1987م.
11. كـــيف نفهـــم الإســـلام – دار الكتب الحديثة لصاحبها توفيق عفيفي.
12. لـــيس من الإسلام – دار الكتب الحديثة لصاحبها توفيق عفيفي.
13. نحـــو تفســـير موضوعي للقرآن الكريم – الأجزاء العشرة الأخيرة – دار الشروق – القاهرة/بيروت – 1995م.

2- ابن خلدون:

14. المقدمـــة – مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر – ط.2 – 1961م.